يأتي بعده فانَّ في هذه المستحجرات رُتباً كاملة وعلى الاقلّ اجناساً ظهرت في طبقات الارض بعدد عديد. منها جنس الصدفيات المعروفة بأمونيت (ammonites) البالغ انواعها اربعة آلاف نوع وكلُّها قد فنيت دون ان يتولَّد منها اجناس لاحقة بها كما انَّها ظهرت دون ان يوجد قبلها اجناس تفرَّعت هي منها

فهذه نتائج المعلومات الجيولوجيَّة سوف تمهِّد لنا الحكم على مزاعم الدروينيين والماديين في آرائهم عن ظهور الحياة ونموّها على وجه الارض. لا بل نستطيع ان نقول مع احد اراكنة علم الطبقات الارضيَّة المسيو دي لاپاران (M^r de Lappa-rent) مستشهدين بقوله الآتي: يظهر من درس تاريخ كُرتنا الارضيَّة انَّ الحياة لم تدخلها بالتدريج وبترقي اجهزة الحيوانات بتوالي الازمنة. بل ظهرت بقدر ما يمكننا ان نبدي حكمنا في ذلك في وقت واحد بظهور اجناس شتَّى حاصلة على كلّ الكمال الذي تحتمله الاحوال المحدقة بها. فكفى بهذا نفياً لمذهب القائلين بترقي المخلوقات وتسلسلها (له تابع)

النصرانية وآدابها
بين
عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

الفصل الثاني عشر

العادات النصرانية بين عرب الجاهلية وفي اوَّل الاسلام (تابع)

العادات الدينية (تتمة)

﴿ استلام الحجر الاسود ﴾ ومن المعلوم انَّ المسلمين اذا حجُّوا الى الكعبة وطافوا حولها استلموا الحجر الاسود الذي فيها ولعلَّهم يفعلون ذلك اقتداء بنبيِّهم.

قال البخاري في الصحيح (٢:١٤٧) : « جاء عُمر الى الحجر الاسود فقبّلهُ فقال : اني اعلم انك حجر لا تضرُّ ولا تنفع ولولا اني رأيت رسول الله صلعم يقبّلك ما قبّلتُك ». قلنا ولا يبعد ان العرب اخذوا ذلك عن النصارى الذي يقبّلون حجارة كنائسهم تعبُّدًا او كحجّاجهم الى القدس الشريف حيث يقبّلون قبر السيّد المسيح او الحجر الذي صعد من فوقهِ الى السماء في جبل الزيتون وعليه رسمُ أثر قدمهِ المبارك »

وقد سبق لنا ذكر حمام مكّة ومأمنها من الصيد . ودونك ما رُوي عن حمام الكنائس . روى الطبري في تاريخ (٢:٨٦١) لرجل من بكر بن وائل ونسبهُ في الاغاني (٢:٧٢) لعبد الرحمان بن الحكم

أتنكر العيسُ تنفخُ في بُراما تُكشَّفُ عن مناكبها القُطُوعُ
كأنَّ مواقعَ الأكوار منها حمامُ كنائسٍ بُغمٌ وُقوعُ

﴿النذور﴾ يروى عن عرب الجاهليّة انهم كانوا ينذرون مواليدهم للكعبة . ذكر ابو الوليد الازرقيّ في اخبار مكّة (ص ١٢٨—١٢٩) عن امرأة اخزم بن العاص الجرهميّة انّها كانت عاقرًا فنذرت إن ولدت غلاماً ان تتصدّق بهِ على الكعبة عبدًا لها يخدُمها ويقوم عليها فولدت من اخزم النَّوْءَ فتصدّقت بهِ عليها فكان يخدمها مع اخوالهِ من بُرْهم . (قلنا) انَّ هذه العادة اعني نذر المولود الى الله كان سبق العربَ اليها اصحابُ الكتاب من يهود ونصارى . وكلّ يعرف كيف نذرت حنّة العاقر ان ولدت غلاماً تجعلهُ في خدمة الله فولدت صموئيل فوفت بنذرها . وقد ورد في القرآن في سورة آل عمران نذر امرأة عِمران (يعني التديسة حنّة) بابنتها مريم العذراء فخدمتهُ تعالى بالمحراب تحت كفالة زكريّا الكاهن

﴿المساجد وبناؤها على شكل الكنائس﴾ لا مراء في ان المسلمين اوّل ما شيّدوا المساجد لصلاتهم بنوها على صورة الكنائس فضلًا عمّا حوّلوهُ منها الى جوامع عند فتحهم البلاد النصرانيّة كالجامع الامويّ في دمشق والجامع الاقصى في القدس الشريف وجوامع حمص وحماة وحلب فكل من يدخل هذه الجوامع من المهندسين يحتم لاوّل وهلة انّها من هندسة النصارى الاقدمين كما اثبتنا ذلك في فصل الفنون الجميلة (ص٣٤٣—٣٥٠) . فلمّا حاول المسلمون تشييد مساجد جديدة تقلّدوا فيها الكنائس

النصرانيّة وكان بُناتُها في الغالب نصارى من الروم والقبط واهل الشام لا يعرفون الّا هندستهم الدينيّة

وقد قابل المرحوم شان برخم (M. van Berchem) بين كل اقسام الجوامع كصحنها ورواقها واركانها وعواميدها وسقفها وقبلتها ومحرابها ومنبرها ومقصورتها ومنارتها وبين الكنائس النصرانيّة واقسامها المختلفة عند ظهور الاسلام وختم بقوله « انّ وضع الجوامع يُشبه شبهاً تامّاً واضحاً بناء الكنائس القديمة (١ » يريد الكنائس المعروفة بالكنائس الملكيّة (Basiliques)

وما نقولهُ هنا اجمالاً عن هندسة الجوامع نستطيع ان نثبتهُ ايضاً لكل قسم منها مفرداً كالمآذن والمنارات التي تقلّدوا فيها الصوامع النصرانيّة وكالمنبر الذي مرَّ لنا ذكرهُ في باب النجارة وهلمَّ جرًّا

﴿ الخطابة في المساجد ﴾ ومما استحدثهُ الاسلام الخطب الدينيّة في الجامع. يروى لصاحب الشريعة الاسلاميّة بعض الخطب التي القاها في قومهِ يذكّرهم ويحضّهم على الاعمال الصالحة وانما تتقلّد في ذلك ما وجدهُ من العادات الجارية بين النصارى المجاورين لهُ الذين كان ارباجم وكهنتهم يرشدون في الكنائس رعاياهم. وقد مرَّ لنا فصل في الخطابة بين نصارى العرب في الجاهليّة مع ذكر إمامهم المضروب فيهِ المثل قسّ بن ساعدة

وكان منبر الخطابة بين النصارى رمزاً عن الرئاسة والسلطة الدينيّة . وكذلك اعتبرهُ محمّد والمسلمون بعده. فكان الخلفاء يرقونهُ ايّام الاعياد والصلوات العموميّة فيلقون منهُ الخطب كما كان يفعل اساقفة النصارى في كنائسهم وقد سبق لنا (ص ١١٩) ذكر العرش الذي اضافوهُ الى المنبر وكان يجلس عليهِ محمّد كما روى ابن الاثير في اسد الغابة وابن سعد في طبقاته. وكان ذلك على مثال العرش الذي يجلس عليهِ

---

١) راجع (Encyclopédie de l'Islam, art. ARCHITECTURE, p. 428b
اطلب ايضاً كتاب سلادين في الفنون الاسلاميّة H. Saladin : Manuel d'Art Musul-man, I, 7-10 وكتاب تواريخ الاسلام للبرنس كايتاني L. Caetani : Annali dell' Islam, I, 432 ومجلّة الاسلام لبكر Beker, Islam, III, 392 وكتاب الصناعة العربيّة لغايه Gayet : l'Art arabe, p. 27. 85

رؤساء الدين النصراني في كنائسهم

وكذلك اعتاد الاساقفة اذا خطبوا او صلّوا صلاةً عمومية ان يمسكوا بيدهم العصاة الرعويّة المعروفة بالمكنّاز . وقد مرّ في خبر قسّ بن ساعدة انهُ كان اذا خطب يتكئ على عصاً (وقيل على سيف) ومما رواهُ البخاريّ في صحيحهِ في كتاب الصلاة (١ : ١٣٥) «انّ النبيّ امر بحربةٍ فتوضع بين يديهِ فيصلّي اليها»

وللجوامع مآذن او منارات يؤذنون منها بالصلاة . وهي ايضاً مما تقلّد فيهِ المسلمون النصارى . فانّ المسلمين كانوا يؤذنون اوّلاً بالصلاة على باب مساجدهم ثمّ عارا سطوحها للاذان او اذّنوا فوق اسوار المدن كما ورد في شعر الفرزدق قال (تاج العروس ٩ : ١٢٠) :

وحتّى غلا في سور كلّ مدينةٍ منادٍ ينادي فوقها بأذانِ

ثمّ اخيراً تقلّدوا صوامع الرهبان وهي قلالي محدّدة الطرف او أبراج كان يسكنها الراهب لعبادتهِ ويترع منها الناقوس . فصارت المأذنة مرادفة للصومعة . ورد ذلك في كتب الادباء كابي الفرج الاصبهاني في الاغاني (٢٠ : ٨٥) اذ ذكر مأذنة المدينة فدعاها ايضاً هناك بالصومعة (١) . وروى عن بعض الموسوسين انهم «كانوا يصفّرون المشايخ في الصوامع اذا اذّنوا» . وفي خطط المقريزي (٢ : ٢٤٨) انّ معاوية امر مسلمة بن مخلد ببناء الصوامع للأذان في جامع فسطاط العتيق المعروف بجامع عمرو قال «وجعل مسلمة للمسجد الجامع اربع صوامع في اركانهِ الاربع . . . وامر ان لا يُضرب بناقوس عند الاذان يعني الفجر» . وكذلك ورد في تاريخ الشيخ ابي صالح الارمنيّ (ص ٥٤ Evetts ,ed) : «وكان فتوح مصر في المحرّم سنة ٢٠ للهجرة ومن الصوامع ما هو باقٍ الى الآن جعلهم المسلمين مواذن (كذا)»

﴿ المجامر في المساجد والجنازات ﴾ معلوم انّ النصارى في مناسكهم الدينيّة في الكنائس وفي جنازات موتاهم يضرمون المجامر ويحرقون البخور ويوقدون الشمع والمشاعل قال الحسين بن الضحّاك يصف كنيسة (البكري ٣٦٩) :

عجّت اساقفها في بيت مذبحها اذكى مجامرها بالعودِ والنارِ

وقد روى الترمذي في صحيحهِ (١ : ١١٦) عن محمّد انهُ كان يجمّر المسجد قبل

(١) اطلب مجلّة الجمعيّة الشرقيّة الاميركانيّة JAOS., XXX, 132-154, art. Gottheil

فود الجماعة . وذكر ابن الاثير في النهاية (١ : ١٧٥) نعيماً المجمر الصحابيّ قال وهو الذي كان يلي إجمار مسجد رسول الله صلعم « وهكذا فعل الخلفاء الراشدون مدة ثم معاوية وبعض خلفاء بني اميّة

ومما ورد في كتاب تحقيق النصرة لابي بكر الراغي انّ عمر بن الخطّاب عند رجوعه من غزوة الشام اتى « بمجمرة من الفضّة فيها تماثيل وكان يجمّر بها المسجد ثم توضع بين يدي عمر بن الخطّاب » . ومما ورد في تجمير المسلمين للموتى ما ذكره ابن الاثير في أسد الغابة في معرفة الصحابة (٥ : ٥٤٥) وابن حجر العسقلاني في الاصابة في تمييز الصحابة (٨ : ١٨٧) عن مرضية الصحابيّة قالت : « اراكم تنكرون شيئاً رأيته يُصنع على عهد رسول الله صلعم رأيت الميت على عهد رسول الله صلعم يُتبع بالمجمّر » . وكذلك روى ابن سعد في طبقاته (٨ : ٥٣—٥٤) عن عائشة زوج نبيّ الاسلام انه حملت في دفنها المشاعل من الجريد الملفوف بالخرق والمغموس بالزيت . ثم افتوا بتحريم التجمير وفي صحيح ابن ماجة « انهُ لا يجوز اتباع الجنائز بالمجامر وما يشابهها لأن ذلك من فعل الجاهليّة » يعني النصرانيّة (١

﴿ اكرام القبور ﴾ يروى في الحديث (جامع السيوطي ص ٣٥٧) : « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » كأن صاحب الشريعة الاسلاميّة حرّم بذلك اكرام الموتى وزيارة قبورهم . الّا انّ المسلمين لم يعيروا بالًا الحديث المذكور كما يثبت ذلك مألوف عاداتهم في اكرام قبر نبيّهم في المدينة وقبور الخلفاء الراشدين هنالك مع ما يزين تلك القبور من الحليّ ويُوقد فوقها من السُرج ويقدّمون اليها من الهدايا . ومن ذلك يتّضح انّ العادة النصرانيّة غلبت عليهم الّا بعض المتطرّفين منهم كالوهابيين الذين ينكرون كلّ اكرام للاولياء . ومما يستند اليه اهل السنّة في اكرام الاولياء ما رواهُ ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير (ج ٢ ق ٢ ص ٩—١٠) « انّ رسول الله صلعم صلّى على اهل البقيع اي قتلى أحد بعد ثماني سنين » وقد اخبر الواقدي عن فاطمة الزهراء ابنته انها كانت تخرج الى أُحد لزيارة قبر حمزة عمّ محمّد (٢

١) اطلب المجلّة الاسيويّة الالمانيّة (ZDMG.1905, 403-404): وتاريخ معاوية للاب لامنس Lammens: Mo'âwia, (367, 436)

٢) اطلب كتاب الاستاذ غولتسيهر Goldziher: Culte des Saints chez les Musulmans. *Paris*, 1880

﴿الاستشهاد﴾ واخصّ من يكرمهم النصارى شهداء دينهم الذين بموجب وصاة السيّد المسيح قضّوا الموت في سبيل ايمانهم على الحياة والغنى والشهوات. وليس للنصارى شهداء غيرهم. فرأى صاحب الشريعة الاسلاميّة ما في هذه الميتة الشريفة من المجد فعظّم الاستشهاد ورغّب فيه بالمواعيد الجليلة في الآخرة. لكنّ بين هذا الاستشهاد والاستشهاد النصرانيّ برزخاً عظيماً. فبينما النصارى لا يعدّون شهيداً الّا من مات لاجل الدين المستقيم ترى المسلمين يكرمون كشهداء كلّ من مات في الحرب والجهاد. بل يعتبرون كشهداء غيرهم ايضاً. جاء في الحديث (جامع السيوطي ص٢٩٣): «الغريق شهيد والحريق شهيد والغريب شهيد والمبطون شهيد». وروى حديثاً آخر (ص٢٧٢): «الطاعون والغرق والبَطن والحرق والنفساء شهادة لأمتي» وفي صحيح البخاري (٣: ١٩٣): «الشهداء خمسة المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم والشهيد في سبيل الله».

٢ العمارات الشرعيّة

﴿اصول الشرع الاسلامي﴾ لمّا ظهر الاسلام كان معظم العرب لا يعرفون من الشرع الّا ما يفي بامورهم ويكفي لمعاملاتهم في حياتهم الساذجة. فلمّا فتحوا البلاد الراقية في التمدّن كالشام ومصر والعراق والعجم احتاجوا الى شرائع اوسع وادقّ وكان نصارى تلك البلاد يتبعون الشرائع الرومانيّة التي نقّحها ونظّمها يوستنيان الملك فعليها جرى العرب اوّلاً بمساعدة عمّال من نصارى الروم والسريان والاقباط وانّما ثبتوا على بعض نواميسهم الاصليّة في عيشتهم الفطريّة مع ما استخلصهُ الفقهاء من القرآن او الحديث. وبقوا على ذلك الى اواسط القرن الثاني للهجرة اذ ظهر كبار الائمّة كالشافعي وابي حنيفة ومالك وابن حنبل فوضعوا اللفقة الاسلامي اصولاً ثابتة يرجع اليها المسلمون حتّى يومنا هذا. على انّ الذين يدرسون هذا الفقه لا يزالون يقابلون بينهُ وبين الشرع الروماني ويلحظون اشياء كثيرة مصدرها الحقوق الرومانيّة

﴿الدواوين﴾ لا قيام لدولة كبيرة الّا بانشاء دواوين مختلفة يُعهد الى كلّ منها تدبير بعض امورها كبيت المال وتدبير الجُند وديوان الانشاء وديوان التوقيع وديوان الاعمال وديوان الجباية وديوان الخاتم. ولم يكن للعرب الفاتحين دربة في كلّ

ذلك ومن ثمّ اقرُّوا الدواوين على ما كانت عليه قبل فتحهم في ايدي عمّال من نصارى البلاد . وجاء في كتاب لطائف المعارف للثعالبي (ص ١٠) «انّ اوّل من دوّن الدواوين عمر بن الخطّاب عملًا بما قال له رجلٌ: رأيتُ الاعاجم يدوّنون ديواناً لهم فدوّن لنا انت ديواناً فامر بوضع الديوان» على انّ هذه الدواوين تولّاها اوّلًا النصارى لعلمهم بتدبيرها . لنا على ذلك مثال جليل في أسرة ابن منصور الدمشقيّة التي اشتهر منها سرجه او سرجون بن منصور من ندماء يزيد بن معاوية (الاغاني ١٦ : ٧) وكاتب معاوية بن يزيد وعبد الملك بن مروان على ديوان الخراج والجند (الطبري ٢ : ٨٣٧ ابن عبد ربّه ٢ : ٣٢٢) وابنهُ يوحنّا هو ملفان الكنيسة اليونانيّة العظيم المعروف بالقديس يوحنا الدمشقي . وكان هؤلاء العمّال يكتبون في الروميّة او القبطيّة او الفارسيّة الى ان تمكّن العرب من نظارة تلك الدواوين فنقلوها الى العربيّة وذلك في عهد عبد الملك بن مروان ثمّ الوليد بن عبد الملك

﴿ التاريخ ﴾ كان للامم المجاورة للعرب تواريخ للاعوام والشهور يعرّفون بها ازمنة الوقائع والحوادث المهمّة فكان اليونان يؤرّخون بسني الخليقة وبتاريخ الاسكندر ذي القرنين وبمولد السيد المسيح . وكان الفرس يؤرّخون بيزدجرد بن شهريار او احد ملوكهم وأرّخ العرب قبل الاسلام بعام الفيل او ببعض ايّامهم المشتهرة كيوم جَبَلة ويوم الكُلاب ويوم ذي قار . امّا المسلمون فقيل انّ عمر اوّل من ارّخ منهم في السنة ١٩ او ٢٠ هجريّة تعلّموا ذلك من جيرتهم . جاء في كتاب الشماريخ في علم التاريخ للسيوطي (ص ٩ ed. Seybold) «انّ رجلًا من المسلمين قدم من ارض اليمن فقال لعمر: رأيتُ باليمن شيئاً يسمّونهُ التاريخ يكتبون من عام كذا وشهر كذا . فقال عمر: انّ هذا لحسن فارّخوا» ثمّ اختلفوا في بدء التاريخ الى ان اصطلحوا على سنة هجرة محمّد من مكّة الى المدينة وجعلوا اوّل العام شهر المحرّم لانهُ شهر حرام ومنصرف الناس من الحجّ . قالوا انهُ يوافق يوم الخميس الثامن من شهر ايّار سنة ٩٤٣ للاسكندر

(لهُ تابع)